أ. مدان محمد
قسم علم الإجتماع بجامعة تلمسان
أ. حجال سعود

العنف المسلح و الترقية الاجتماعية لدى شباب ضواحي المدن الجزائرية

الملخص

يخفي العنف المسلح الذي ساد ويسود المجتمع الجزائري من أكثر من عشر سنوات أهدافا اجتماعية بغرض إعادة توقع الفاعلين من أجل لعب أدوار جديدة ، هذا ما يفسر الانخراط القوي للفئة الشبانية القاطنة بضواحي المدن الجزائرية والمنضوية تحت لواء الجماعات الإسلاموية المسلحة المتسمة بطابعها الانشقاقي حتى تستفيد من الترقية الاجتماعية رافضة كل أشكال التهميش الاجتماعي التي عانت منه من قبل.

يعتقد بعض المحللين أن العنف المسلح الذي ساد و يسود المجتمع الجزائري منذ أكثر من عشر سنوات هو عنف مقدس، أي عنف عقائدي تغذيه أهدافا إيديولوجية بغرض إقامة الدولة التيوقراطية ، دولة العناية الإلهية .لكن كل النزاعات المسلحة و إن تتمترس خلف شعارات ثقافية هوياتية ، إلا أنها تخفي ورائها أهدافا.اجتماعية بغرض تموقع الفاعلين فيها حسب رأي " **برونو ا تيان** "[1]

و الواقع والتحليل يثبتان أن كل التجارب التاريخية التي مرت بها الجزائر تسير في هذا الاتجاه ،فمن القرصان في العهد العثماني إلى القايد في العهد الاستعماري إلى العقيد خلال حرب التحرير ، إلى الأمير في الأزمة الحالية كلها شكلت مخيال حرب في الذاكرة الجماعية بهدف الترقية الإجتماعية ، هذا ما يفسر الإنخراط القوي للفئة الشبانية المهمّشة

في الحركات الإسلامية المسلحة ، رغم عدم اعتناق عدد معتبر منهم للمذهبية العقائدية الإسلامية.

في هذا الصدد تشير بعض الدراسات السوسيولوجية إلى أن" معظم أفراد الجماعات الاسلاموية المسلحة ينتشرون في أحياء مكتظة بالسكان ، أحياء شعبية وهم من فئات اجتماعية متوسطة وفقيرة ".(2)

هذا يعني أن هؤلاء الشباب لم يكونوا مناضلي قضية ايديولوجية بقدر ما كان انخراطهم في هذه الجماعات تعبير عن رفض التهميش الاجتماعي وبحثا عن مكانة اجتماعية مفقودة ، هذه الأخيرة تعززت أكثر في ظل قوانين الرحمة و المصالحة الوطنية عندما تم تخفيف العقوبات الصادرة في حق من حمل السلاح بغية إعادة اندماجهم في الحياة الاجتماعية من جديد ، انطلاقا من تعاطي النظام السياسي مع أعمال العنف المسلح منذ بداية الأزمة إلى يومنا هذا.

و لكن لماذا شباب ضواحي الـــمدن ؟

رغم انتشار العنف المسلح في كل من الريف و المدينة بدون استثناء بل إن فظاعته كانت في المناطق أقوى، هذا يعني بأن التجنيد في الحركات المسلحة كان في الريف أقوى منه في المدينة.

إن العالم الريفي على خلاف المناطق الحضرية و المحيطة بها يشكل بالنسبة للنظام دعما ذا بال، فالأرياف قد استفادت على سبيل المثال من الاستثمارات العمومية خلال السبعينات التي جعلت العديد من القرى تكتسب هياكل قاعدية أحسن من ضواحي المدن الكبرى و لا شك أن وزن قدماء المجاهدين و الأعيان المحليين كان له الفضل في هذه العناية التي أولتها السلطات بفضل سياسة مثلنة الريف.

" هكذا فإن الإسلامويين حين ينشقّون، يواجهون في العالم الريفي معارضة قدماء المجاهدين الذين يتكفلون بالمراقبة الإجتماعية للقرى " (3)

كما أن الشباب في المناطق الريفية يخضعون للأطر الإجتماعية التقليدية التي توفر لهم الحماية و الرعاية الإجتماعية من جهة و تراقب تصرفاتهم بفضل الضبط الاجتماعي من جهة أخرى.

إن الشباب في ضواحي المدن الجزائرية الفوضوية العمارة والمهمشة اجتماعيا هم فئة اجتماعية تشكلت جراء النزوح الريفي من المناطق الداخلية وبالتالي فهي فئة مقتلعة من جذورها الاجتماعية الأصلية و متحررة من الضوابط الإجتماعية التقليدية نسبيا هذا من جهة ومن جهة أخرى تم رفضهم من طرف مركز المدينة التي يقطنون بها وهو ما جعلهم عرضة للتهميش و الفقر و الاقصاء الاجتماعي .

الشيئ الذي جعل العنف بتالنسبة للكثير منهم مطية للارتقاء الاجتماعي و الثأر من الذين همشوهم .

انطلاقا من هذا الوضع فلا غرابة أن نجد الجماعات الإسلاموية المسلحة ملجأ لها في هذه الأحياء المتمركزة خاصة في أحياء المدن و لدى هؤلاء الشباب الذين لا يربطهم أي رابط بالأدبيات الإيديولوجية للإسلامويين إلا رغبتهم في البحث عن مكانة اجتماعية مفقودة.

لقد ظهر عدد من المجموعات المسلحة في ضواحي المراكز الحضرية هي مستقلة لا تؤتمر إلا بأوامر زعمائها و تحصر شعاع نشاطها في الوسط الحضري، تتألف من شباب هامشيين بطالين و في أغلب الأحيان أميين و جانحين.

و ها هو " **الياس بوكراع** " يقدم بورتريه لأحد الأمراء الذي ينتمي إلى هذه الفئة : " الرجل الذي يصعد في خريف 1992 يدعى عبد الحق العيادة الملقب بأبو عدلان و هو لا ينتمي إلى العلماء فهو حرفي في حي براقي إحدى قطاعات الإسلامويين في العاصمة و هو عمليا أمير على غرار أمراء أحياء آخرين، شكل عصابته من الشباب البطالين و المنحرفين و الجانحين، أما جهاده فهو ثورة طفرانيين أكثر منه التزاما دينيا و إيديولوجيا " (4)

إن جاهد هؤلاء الشباب لم يتم في الجبال، بل في حيّهم حيث ينشطون بكثير من الأمان و بفضل معرفتهم الدقيقة لجميع الشوارع و الأزقة و المسالك غير المسكونة و الأنفاق غير المنتهية فإنهم يستخدمون جغرافية محيطهم استخداما أمثل.

و لكن ما لعلاقة بين مخيال الحرب و الترقية الإجتماعية ؟

إن الوضع في الجزائر المشبع بالعنف المسلح يمكن الإحاطة به وتحليله من خلال مخيال الحرب الذي يتكون من صور تاريخية عرفت بفضل استخدام العنف تزايدا لمواردها الرمزية و المادية و يرى " JF Bayart " بأن المخيال يجب أن يكون إجرائيا إن أردنا بقاءه و استمراره و أن يستهوي الناس و هذه الميزة تتوقف و إن جزئيا على صلتها بمادية بعينها " .(5)

إن فرضيتنا مؤداها أن الأمراء قادة المجموعات المسلحة الإسلاموية يمكن تحديدهم قد يزيد أو يقل و بشكل من التفضيل بالنسبة للنماذج التاريخية ا لتي تميزت في مختلف المراحل بترقيتها الاجتماعية بفضل الحروب ، لما كانوا يوصفون في زمانهم بالخارجين عن القانون أو قطاع الطرق أو المرتزقة، فان القرصان في العهد العثماني أو القايد في العهد الاستعماري أو ا لعقيد (ضابط في جيش ا لتحرير) قد عرفوا مسارات أفضت إلى وظائف المسؤول السياسي، إن هذا المسار من الترقية قد سجل العنف في السجل الثقافي للترقية الاجتماعية .

إن الحروب الاستعمارية و حروب التحرير قد أفرزت تغيرات اجتماعية و سياسية ببروز اسر كبيرة و عززت فضائل العنف، فرغم المآسي الإنسانية التي أفضت إليها فقد ساهمت في تشكيل أدوات للارتقاء الاجتماعي لبعض الشرائح الاجتماعية التي أحسنت الاستفادة منها.

" إن هذا من شأنه أن يعزز الاعتقاد بأن الحرب تكون بوتقة للمساواة و أنها توفر إمكانية تحسين الحالة الاجتماعية، لقد كان لإستعمار لجزائر خلال القرن ا لتاسع عشر وحرب التحرير فترات من الفرص للمحرومين وتجديد النخب ." (6)

إن الترقية الاجتماعية " للأجواد " في القرن التاسع عشر و كذا ترقية "العقداء" في القرن العشرين تؤكد بأن العنف أداة ممتازة لجمع الأموال .

فالمخيال الحربي يتغذى من هذه النجاحات الفردية للشرائح المتواضعة ففرضيتنا هنا قوامها أن الأمراء (قادة الجماعات المسلحة للعصابات الإسلاموية) يندرجون في استمرارية هذه الوجوه التاريخية للحصول على الثروة و الشهرة.

إن تجربة الحرب تبدو نتيجة هوية — هوية ا لمجاهد — ففي ا لحرب التحريرية كما في العنف المسلح، اليوم يتم الإعتراف بمنزلة ا لمجاهد من خلال الالتحاق بالجبل فالحرب بإعطائها الأسبقية للقيم الحربية (ا لشجاعة ، ا لصبر ، الحيلة) تقلب التراتبية الإجتماعية المواتية للمتعلمين و المثقفين و الحائزين على الشهادات لصالح الوصوليين الذين يعدمون الرأسمال المدرسي، بهذه ا لطريقة " يصبح العنف المسلح الميدان المفضل لقطاع الطرق السياسيين ". (7)

إذا كان المثال الواجب الاحتذاء به بالنسبة للمناضلين الإسلامويين للفيس (FIS) المنضويين خلف راية الجيش الإسلامي للإنقاذ هو بطل حرب التحرير فإن رمز النجاح و نموذج المحارب المثالي بالنسبة لأمراء الجماعات المسلحة المستقلة بضواحي المدن هو المقاول ا لعسكري — فئة من ا لضباط التي تخلت عن المجال العسكري و استثمرت في مجال المقاولات مستغلة علاقاتها و نفوذها ا لسابقين .

فأمراء الجماعات المسلحة يطمحون إلى تغيير العلاقات الإجتماعية لمنطقتهم لصالح أكثر من طموحهم لقلب النظام و استبداله ." إن التناقض بين الغايات المصرح بها (

إقامة دولة إسلامية) و طرائق العمل (حرب عصابات في البلديات المحرومة) مصدرها إرادة الأمراء في أن يحلوا محل المقاولين العسكريين المالكين الحقيقيين للسلطة المحلية " [8]

و لكن من هم شباب الضواحي المنخرط في العنف المسلح ؟

إن تعميم العنف قد أدى الى قلب الأدوار فأولئك الذين كانوا خلال المسار الانتخابي يشكلون الوسائط المحليين (المناضلين الإسلامويين و المنتخبين) قد عزلوا نتيجة بروز المراهقين المجاهدين المنضويين في عصابات مسلحة في نهاية 1993، لأن الشباب المجاهدين غير المعروفين لدى مختلف مصالح الاستخبارات غير مسجلين في بطاقات الإسلامويين المشتبه فيهم، إن هؤلاء الشباب هم نتاج القمع و الفقر وجدوا في العنف المسلح وسيلة لاكتساب مكانة اجتماعية مفقودة . و من أهم الفئات التي سوف نتطرق إليها:

أ – فـــئـــة الجـــانـــحـــيـــن

ب – فـــئة ا لبطالين (ا لخيطيست)

جـــ – فـــئة ا لمهربين (الطراباندیست)

أ – فـــئـــة الـــجـــانـــحـــيـــن :

في الواقع استطاع بروز الجماعات الإسلاموية المسلحة في الأحياء أن يضع حدا للممارسات الجانحة ذلك أنها لا تقبل أن تدخل في قطرها وقد شنت هذه الجماعات حربا بدون هوادة على الجانحين مما أثار رضا السكان .

فالجانحون مطالبون بمغادرة مكان إقامتهم أو التعامل مع ا لجماعات المسلحة و إزاء هذه ا لمعضلة يختارون الإنضمام الى الحركات الإسلاموية فالمطاردة الشرسة التي يقوم بها الأمراء ضد الجانحين يثير انضمامها مدهشا لقضية الجهاد من قبل هؤلاء الآخرين " كما إن ديناميكية هذه الجماعات، تثير طلب الإنخراط من قبل فاعلين غرباء عن القضية العادلة [9] "

يظهر الجانحون في العنف المسلح الذي تمر به الجزائر ضمن أهم المستفيدين: سواء كان الجيش أو الجماعات المسلحة فهم يضعون كفاءاتهم في خدمة الأقوى.

إنه يبدوا كما تشير بعض الدلائل يخدمون الجماعات الإسلاموية المسلحة حين تكون هذه الأخيرة في وضع من القوة وتتخلى عنها حين تصبح قوات الأمن مهيمنة من جديد، و حينما يكون الجانحون تحت سطوة أمير يمكنهم أن يواصلوا الابتزاز لصالح الجماعة الإسلاموية و إذا ما تم تفكيك العصابة فإنهم يواصلون النشاط و لكن لصالحهم.

ب – ا لـــبـــطـــالـــــــين (ا لحيطيست) :

إن الحرب الدائرة بين النظام و الجماعات الإسلاموية المسلحة أدت إلى طلبات متزايدة للإنخراط في كليهما.

فالنظام بفضل خلقه لعدة أسلاك المقاومة (الحرس البلدي، المقاومين، الشرطة ...الخ) استوعب شرائح عريضة من البطالين، أما الشرائح التي لم يكن لها الحظ في الإنخراط في الأسلاك النظامية فقد استوعبتها الحركات المسلحة و ضمت عددا معتبرا منهم سواء كشبكات إمداد أو محاربين مباشرين بهذا أصبحت العصابات المسلحة بمثابة وكالات لتشغيل و استيعاب هذه الفئة ا لاجتماعية .

من هنا فان انخراط الشباب " ا لحيطيست " في ا لعنف المسلح منح له مكانة اجتماعية ورد له الإعتبار .

جـ – ا لـــمـــهـــربـــيـــن "ا لطرا بنديست " :

يقصد بهم المهربين الصغار و حملة الحقائب الذين كانوا يستغلون لدى كبار التجار بغرض تمرير الحقائب و السلع عبر المناطق ا لحدودية في زمن احتكار الدولة للتجارة الخارجية.

لما ترك هؤلاء التجار الكبار الأحياء الساخنة جراء ابتزاز الجماعات المسلحة، دخل هؤلاء الشباب عالم البطالة، إلا أن الجماعات المسلحة إستوعبت عددا معتبرا منهم

وذلك بفضل خبرتهم في إجتياز الحدود و علاقاتهم مع السلطات الجمركية و كذلك خبرتهم في تزوير الوثائق مما جعل هذه الجماعات تستغلهم لتهريب الممنوعات و لما لا بعض الأسلحة من الخارج ، و لكن بعد تراكم الأموال الناتجة عن الريع الحربي و ابتزاز المواطنين ، أعاد الأمراء و أتباعهم " ا لترابانديست " صب هذه الأموال في اقتصاد التجارة و استثمارها في شركات التصدير و الاستيراد و هكذا غيرت الجماعات المسلحة نشاطاتها بتحويلها إلى منافذ أخرى .

فمنذ"1994 م برزت للوجوه قرابة 11000 شركة تجارية رسميا كما تم إيداع في السداسي الأول وحده من سنة 1996 م حوالي 13000 طلب تسجيل في السجل التجاري أي ما يعادل 60 طلبا في اليوم" (10) .

و لكن ما هي صورة الأمير لدى شباب الضواحي ؟

يظهر الأمير في الوسط شبه الحضري و الوسط الريفي بمظهر القائم على حماية الناس و الثأر لهم في نظر أولئك الذين زجوا بأنفسهم في منطق القطيعة مع النظام القانوني .

إن التجديد الدائم للجماعات المسلحة و الأمراء على رأسها سببه التصورات الإيجابية لنشاطهم في صلب وسطهم الاجتماعي الأصلي فرغم الاغتيالات التي يرتكبونها فإن الأمراء يضلون يغوون الغير، فأعمالهم التي هي إجرامية في نظر من يشجبها هي عكس ذلك في نظر المتعاطفين معهم الذين يبررونها ويحترمونها .

ذلك أن الأمراء و أعضاء الجماعة ينمون هويتهم من خلال صورة "المجاهد" و يضمنون لأنفسهم مستوى معيشيا يحسدون عليه.كما يجسد أمير الجماعة المسلحة في نظر هؤلاء ا لشباب بمعية نجوم "كرة القدم "و "الراي" و خطباء الفيس (**علي بلحاج وعباسي مدني**) نوعا جديدا من الأبطال كما أن الـــموت الذي ينتظره لا محالة يزين صورته بهالة وينم عن شجاعته."فلقب الأمير الذي له رنين عالمي بفضل وسائل الإعلام يحول المسار الاجتماعي للفرد النكرة الى مسار عدو عمومي رقم واحد" (11)

نستخلص من كل هذا أن الجماعات الإسلاموية المسلحة حاولت أن تقدم بديلا إجتماعيا مستغلة في ذلك هشاشة التنمية في ضواحي المدن و الأرياف حيث أصبحت مجالا خصبا لأعمال عنف دموية وتحت الغطاء الديني اجتذبت إليها قطاع عريض من الشباب مستغلة إياهم في إستراتيجيتها الحربية مع الأخر الذي اتهم بالجهل و ا لكفر و هو ما أعطى تبريرا لكل أعمالها التخريبية و التدميرية .

الهوامش:

(1) برونو إتيان : محاضرة حول الأمير عبد ا لقادر، ألقيت بجامعة تلمسان خلال شهر اكتوبر 2006.

(2) مكتاف كريمة " سوسيولوجية العنف المسلح في الجزائر " دراسة وصفية للجماعات الإسلامية المسلحة، رسالة ماجستير، قسم علم الاجتماع " جامعة ا لجزائر " 2002 ص 310

(3) Mohamed HARBI : la guerre commence en Algérie, Ed Bruxelles complexe, 1984, P166

(4) الياس بوكراع : الجزائر ا لرعب ا لمقدس – ترجمة خليل احمد خليل – دار الفارابي، 2003، ص 276.

(5) BAYAR (JF) : l'illusion identitaire , Paris fayard ,1996 , P185 .

(6) لويس مارتيناز – ا لحرب ا لأهلية في الجزائر – ترجمة محمد يحياثن – منشورات المرسى، 1998، الجزائر، ص29

(7) الـــــمـــــــرجع نفسه، ص 34

(8) الـــــمرجـــــــع نفسه، ص 153

(9) الـــــمرجـــــــع نفسه، ص 119

(10) Le journal El Watan, 09 Juillet 1996,

(11) لويس مارتيناز، الـــمرجع السابق، ص 158